33 يوماً من الصمود... حبر الزمن القادم القادر على إغراق المحتل في البحر

تحقيق: عبير حمدان

كيف نختصر مشهد الدمار المتنقل وصدى ضحكات أناس عرفناهم ليرحلوا عنا قسراً فيما العالم بما يضم من الشر تكتل ضدنا، تسع سنوات من عمر هذا الوطن مرت وتموز يحتفي بنصر آب وكأن أرواح من تلقفهم التراب حاضرة تخبرنا كيف باتت هذه الأرض مقدسة.

لأننا قوم لا نترك أسرانا في السجون كانت المواجهة حتمية، ونحن الشعب الذي حضن مقاومته ليحصد التحرير ذات آيار، تسع سنوات لم تلغ صور المجازر التي يتغذى بها الصهاينة وهم أرباب الإرهاب المتنقل من فلسطين حتى آخر حبة تراب تشبّعت بدماء الشهداء.

تجول بين تفاصيل الأمس في القرى الجنوبية تطالعك حجارة البيوت بحكايا تقارب الخرافة لكنها واقع عايشه أهل هذه الأرض منذ داس المحتل على أطراف بساتين الليمون، هم اعتادوا البقاء، تفوّقوا على الخوف ومضوا بما تيسّر من عتاد يمهّدون لرفع راية الانتصار، العدو لا يفرّق بين مقاوم وآخر فكل الأهداف مشروعة قياساً لحساباته. قيل إننا مغامرون وارتضينا أن نخوض المغامرة حتى النفس الأخير. حينها كتب الجنوب والبقاع والضاحية... ولبنان التاريخ بحروف من تبر وباتت لعب الأطفال شاهدة على إجرام باركه أهل الاعتدال العربي ومن يحرّكهم، وجه قانا الثانية تيمّم بأنين أطفال مروحين وعرّج صوب الشياح والحارة ليشعل شمس بعلبك وقراها التي كانت ضمن الخطوط الأمامية للمواجهة.

النصر الذي أهدته المقاومة للعرب بعد 33 يوماً من الصمود لا يُقدّر بثمن، هو وجه الطفولة الضاحك من بين الركام، هو حلقات السمر حيث لا يخشى القمر صواريخ الطائرات الحربية، هو انسكاب الغيم القادر على إخماد جسد الرضيع المشتعل في غزة، وهو حبر الزمن القادم الذي سيعيد تشكيل الخريطة القومية القادرة على إغراق المحتل في البحر.

لأنّ فلسطين القضية كان نصر آيار وما سبقه من حروب بأسماء كثيرة، ولأنها أبجدية الحكاية كانت المواجهة التي أشعلت عدوان تموز ـ آب 2006، ولأنها قبلتنا الأولى والأخيرة نذود اليوم عن الشام، وبين الرصاص والكلمة خيط رفيع، لذلك كان لا بدّ من الإضاءة على من حمل قلمه وأوراقه ليدوّن مشاهد العدوان بالصوت والصورة، وهذه مقاومة من نوع آخر لا تنفصل عن قصص من ساهم في إسعاف الجرحى ولملمة أشلاء الشهداء ومن بقي صامداً في الجنوب والضاحية كرمى لعيون المقاومين.

الجنوب الشاهد الأول والأخير

حفرت مجزرة مروحين في ذاكرة عبدالله نور الدين (مفوض الهيئة الصحية الإسلامية – الدفاع المدني في المنطقة الأولى) معتبراً إنها حالة خاصة ومؤلمة، ويقول عن يوميات العدوان: «حين بدأ العدوان قمنا بتوزيع سيارات الإسعاف على القرى المعرّضة للقصف، إلا أنّ تصاعد وتيرة الحرب وقيام العدو بقطع أوصال المناطق جعل تأمين المواد الأولية لإسعاف المصابين أمراً صعباً، لكننا لم نيأس وتابعنا العمل في جوّ لا يخلو من المخاطر حين أنّ واجبنا يحتم علينا مساعدة الناس. ولعلّ أقسى مشهد أختزنه في ذاكرتي هو مجزرة مروحين التي أعتبرها حالة خاصة بما ضمّت من ألم، كنا أول الواصلين إلى المكان وعملنا مع الجمعيات الأهلية التي أتت لاحقاً على سحب المصابين وإسعافهم، من الصعب أن أنسى وجه الأطفال والنساء والعجزة وواجبي يحتم عليّ مساعدتهم من دون أن يشعروا بحجم الوجع الذي يعتصرني، فهم بحاجة إلى من يمنحهم الأمل والعزيمة للبقاء. أما الموقف الأصعب فيتمثل بسماعنا لنداء الاستغاثة الآتي من تحت الركام حيث الطرقات مقطوعة ومن الصعب إيصال الرافعات بسهولة لإنقاذ الناس، لكن كل ما عشناه لم ينل من عزيمتنا ونحن جاهزون لأيّ عدوان محتمل».

لا مكان للخوف

يؤكد أبو علي فارس (كشافة الرسالة الإسلامية ـ الدفاع المدني) أنّ الخوف ليس ضمن مصطلحات الشعب المقاوم، ويتحدّث عن دور كشافة الرسالة الإسلامية خلال عدوان تموز: «لعبت كشافة الرسالة الإسلامية دوراً بارزاً خلال العدوان فقد كانت حاضرة حيث يجب أن تكون بشكل منظم سواء بعناصرها البشرية أو تجهيزاتها الميدانية وسيارات الإسعاف التابعة لها».

فارس كان مسؤولاً عن مركز صور في الكشافة حينها ويقول عن تلك الأيام: «كنا نؤمن بقدرتنا على الانتصار من خلال الصمود والمواجهة، والخوف لم يكن له مكان في قلوبنا، لذلك بقينا إلى جانب أهلنا في الجنوب حتى آخر طلقة، استطعنا تغطية المجازر كافة من قانا إلى صريفا وغيرها، كنا نزيل الركام بأيدينا وننتشل الجثث ونساعد الناس العالقين وسقط منا شهداء وجرحى، لكن الحافز الإنساني كان يقوّينا لنستمر».

أكثر ما أثر بفارس هو مشهد لجثة طفل يحكم بقبضة يده الصغيرة على يد والدته وكأنه يتمسّك بحبل خلاصه، مما جعله يتخيّل الحوار بين الأم وولدها قبل القصف فيختنق بدمعة وغصّة. ويتحدّث فارس عن مبنى الدفاع المدني الذي تعرّض للقصف وهو الذي لم يدرك حينها حقيقة ما جرى إلى أن رأى أبو زينب أحد عناصر الدفاع المدني مصاباً والجرحى يسيرون أمامه.

ويختم فارس بالقول: «فرحنا بإنقاذ الكثيرين، ولكن يبقى الأسف على الشهداء الشباب مثل الشهيدين الشقيقين علي ونجيب شمس الدين اللذين عرفناهما مقاومَين وناشطين في الحزب السوري القومي الاجتماعي».

مسعف وجريح ومتبرّع

لا يخفي قاسم شعلان (مسعف في الصليب الأحمر) مدى تأثره بقسوة الحرب وهو الذي يعمل مسعفاً في الصليب الأحمر منذ 1993 ويذكر الحادثة التي أصيب فيها خلال عدوان 2006 فيقول: «كانت تبنين تتعرّض للقصف وسيارات الإسعاف التابعة لتلك المنطقة تحمل الجرحى وكنا نحاول تبديل الجرحى لكي تبقى كلّ سيارة قريبة من منطقتها، وأثناء عملية التبديل في قانا وفي نفس المكان الذي وقعت فيه مجزرة 1996 قصف العدو سيارتنا وسيارة تبنين، ورغم إصابتي سعيت ورفاقي لإيصال أحد الجرحى الذي بترت قدمه إلى المستشفى وتبرّعت له بالدم حيث أنه لم يكن لديهم وحدات كافية لمساعدته».

ويضيف شعلان: «المشهد الذي ترك أثراً كبيراً في داخلي هو الأم التي تبكي ولدها الشهيد أمام ناظرها والطفل الذي يبكي والدته، والأمر الصعب تمثل في عملية إنقاذ زملاء لنا بعد أن تعرّض مركز الدفاع المدني للقصف، إلا أننا في تلك اللحظات نفصل بين مشاعرنا وواجبنا ونكمل المهمة وتبقى الصور راسخة في الذاكرة بما فيها من ألم عندما نعود إلى مراكزنا وتنتهي الحرب».

مشاهدات موسى الزين

يروي موسى الزين أحد المسعفين القدامى الكثير من مشاهداته خلال الحرب فيقول: «أطفال لفظوا أنفاسهم الأخيرة أمام عيني، منهم من سلم الروح في حضن والدته، وآخرون لم نتمكن من الوصول إليهم لنسعفهم. بعد مجزرة الحوش تدخلنا كمسعفين بسياراتنا المدنية فتعرّضنا للقصف فيما كنا نحاول إزالة الجثث التي تحمل الشعارات البيضاء، وفي مجزرة بيت القدسي حاولنا الدخول إلى المبنى رغم التحذيرات وسمعنا صوت طفل تحت الركام لكن القذيفة كانت أسرع منا وحالت إصابتنا بشظاياها دوننا وإنقاذ الطفل».

وفي بناية الدفاع المدني التي ضربت وراح ضحيتها الشهيدان القوميان، حينها كان الزين أول الواصلين ليرى علي ونجيب اللذين تربطه بهما علاقة شخصية. اقترب من علي الممدّد على الكرسي ليسعفه، حاول مراراً التحدث إليه علّه يجيب، كان متأكداً من استشهاده لكن روح الصداقة رفضت الاستسلام للواقع، ولم يجب علي... بل بات الشهيد علي.

إعلاميون... للوطن

يعتبر الإعلامي قاسم صفا (الوكالة الوطنية) أنّ المهنية والخبرة العملية لا تلغي المشاعر الإنسانية التي تتحرك أمام هول المشهد خلال أيّ عدوان على الوطن، ويستذكر عمله خلال العدوان الإسرائيلي في عام 2006 فيقول: «لم تكن تغطية هذا العدوان مهنية بالمعنى الجاف للكلمة بل إنها انطلقت من الوجدان الإنساني والوطني حيث أنّ واجبنا حتم علينا الوقوف مع المقاومين في موقع الصورة والخبر لتكون المواجهة بالرصاص والقلم كي نحقق الانتصار ونهزم العدو الصهيوني معاً، فدور الإعلام أساسي في الحرب ولا يمكن فصله عن ساحة المعركة، وكصحافي لم أفكر ولو للحظة في الفصل بين مهنتي وبين شعوري الشخصي وأنا أحمل في داخلي النهج المقاوم والعقيدة الراسخة بقضيتي المحقة للحفاظ على أرضي ووطني، في العديد من المواقف كنت أخلع ثوب المراسل لأنزل إلى ميدان الخدمة الإنسانية وأعمل على مساعدة الناس بما تيسّر، كما أنني أتفقت مع بعض الزملاء على كتابة بعض الأخبار التي تُظهر الحياة اليومية والعادية للأهالي في إطار التعبير عن الصمود رغم دويّ المدافع».

خلال مسيرته المهنية الطويلة عايش الإعلامي حسين سعد معظم الاعتداءات الإسرائيلية المتكرّرة على الجنوب، وهو كان حاضراً في تموز 1993 (عدوان الأيام السبعة) وفي نيسان 1996 (عناقيد الغضب) كما أنه واكب التحرير عام 2000، أما عن 2006 فيقول: «مهنتنا تتطلب منا أن نرسل الصورة والصوت والصدى إلى أبعد مدى حتى يرى العالم همجية العدو، والعدسة حضنت الكثير من الجرحى والشهداء، ولكن هذا لا يعني أننا كصحافيين يجب أن نستكين فقط إلى آلة التصوير ولا نمدّ يد العون إلى المصابين خاصة حين تغيب فرق الإسعاف قسراً، وخلال حرب تموز ـ آب 2006 تخليت قليلاً عن آلة التصوير في أكثر من مكان، وهذا أمر بديهي ولا يحتاج إلى مباركة».

أما الزميل مصطفى الحمود فيرى أنه يقاوم بالقلم والصورة وأنه ساهم وزملاؤه في تحقيق الانتصار، ويذكر قصة هزّت كيانه فيقول: «هناك الكثير من الصور المؤلمة التي عبرت أمام عدستي ولكن أكثر مشهد هزّني كان لقطة تآكل أشلاء الشهداء، بكيت وأرخيت آلة التصوير من يدي».

من ناحيته شدّد الإعلامي جمال خليل على أهمية نقل الخبر بمصداقية دون زيادة أو نقصان، مشيراً إلى الكثير من الأخطاء التي ارتكبها بعض الزملاء خلال العدوان التي قد تكون مقصودة أحياناً حسب وجهة نظره، وأعطى مثالاً على ذلك بالقول: «أتصل بي أحد الزملاء لينقل لي خبر تدمير الطائرات الإسرائيلية لمرفأ مدينة صور، وهو خبر كاذب فقد كنت حينها بعيداً عن المرفأ مسافة أمتار قليلة، فأدركت أنّ هذا الشخص أخباره ملتبسة وغير دقيقة ولا تخدم المهنة».

الشعلة المتقدة...

12 تموز 2006 كان الخبر، وكانت شعلتها المبتدأ والخبر، أدرك أهل «المنار» أنها في مرمى النار منذ اللحظة الاولى التي تلت إعلان الخبر، 13 تموز 2006 اهتز مبنى القناة حيث قصف العدو الإسرائيلي هوائي المحطة. «علمنا أنّ الساعة قد حانت» يقول أحد الإداريين في القناة، «وحين بدأت آلة الدمار الإسرائيلية بقصف المناطق اللبنانية وقطع أوصالها كنا في جاهزية تامة لمواكبة الحدث، فأخرجنا ملف خطة الطوارئ من الدرج استعداداً للمواجهة».

16 تموز في تمام الساعة 1:30 ظهراً كان قسم الأخبار في القناة ينقل الأحداث، وبعد سبع دقائق على قصف المبنى وتدميره بالكامل توقف البث فكان الاتصال بمبنى الاحتياط حتمياً ليعود البث بعد دقيقتين من توقفه، ويقول أحد إعلاميّي المنار على الهواء مباشرة: «نأسف لهذا العطل الفني الطارئ الناجم عن أطنان من البارود والدخان». خاب أمل الإسرائيلي بنشوة النصر الوهمية، وكانت المفاجأة الاولى في إطلالة سيد المقاومة على الشاشة ليعلن عن تدمير البارجة «ساعر» بالتزامن مع لحظة استهدافها.

حين دمّر العدو الصهيوني مبنى «المنار» لم يُحرّك العالم «الحر» ساكناً حتى ولو ببيان استنكار، لكن فريق القناة لم يستسلم بل تابع التغطية والتفاعل مع الناس وعمل على بث روح الصمود حتى آخر أيام العدوان، وفي 14 آب 2006 رفعت قناة «المنار» علامة النصر ونفضت عنها غبار الركام لتستقبل الوفود الآتية إلى حيث كان المبنى قائماً. اليوم وفي الذكرى التاسعة للانتصار تعود «المنار» شعلة متقدة إلى قلب الضاحية وإلى مكانها الأساسي لتواكب نبض الناس من مبناها الشاهق الذي يضمّ صور شهداء الأمس واليوم وشهودها على همجية القاتل سواء كان على الحدود الشمالية أو الشرقية للوطن.

نبض الضاحية

يفخر علي حدرج بمقدرته على الصمود خلال أيام العدوان وهو الذي كان في السادسة عشر من العمر، ويقول:» لم أفكر ولو للحظة بترك الضاحية وكنت أقصد المربع الأمني يومياً، وحين وقعت مجزرة الشياح كنت هناك وشاركت في إسعاف الناس، المواجهة مع العدو الإسرائيلي تتطلب الصمود وإذا لم نتمكن من التواجد على خطوط النار المتقدّمة، فهذا لا يعني أن نترك بيوتنا، اليوم وبعد تسع سنوات أؤكد لك أنني ثابت على قناعاتي ومستعدّ لردع أيّ عدوان، وأثق بأنّ الضاحية التي عادت أجمل مما كانت كما قال سيد المقاومة ستبقى الأجمل وسنبقى في قلبها».

ريما بقيت في الضاحية أولى أيام العدوان ولم تكن ترغب بالخروج منها «لم أرغب ولو للحظة أن أترك منطقتي وبيتي، ولم أتصوّر أني قد أضطر للمغادرة إلى جزء آخر من هذا الوطن، قد يكون فيه أفراد لا يتمنون أن تنتصر المقاومة في هذه الحرب، لكن أمام إصرار والدتي تركت الضاحية بعد عشرة أيام من بداية العدوان. حين توقفت العمليات العسكرية كنت أول العائدين إلى حيث أنتمي كمن يبحث عن ذاته بين الركام».

عين أبو سعيد سجلت كلّ تفاصيل المكان خلال العدوان وهو كان على ثقة تامة بحتمية الانتصار...» كنت أجول في أحياء الضاحية وأسعى إلى تأمين مقومات الحياة اليومية للناس من غذاء ومياه، رأيت أنه من واجبي مدّ يد المساعدة لمن يحتاجها ومثلي فعل شبان آخرون، كنا نحمي البيوت والشوارع ونهرع لإسعاف المصابين ونعمل على رفع الركام لتسهيل حركة الناس، في ذاكرتي الكثير من الصور للمباني التي سوّيت بالأرض، وللناس الذين اختاروا البقاء ورفعوا أيديهم بالدّعاء لنصرة المقاومة ولو من فوق ركام منازلهم، إنها الضاحية بكل تناقضاتها هذا عهدنا بها وهكذا بقيت وصمدت وانتصرت».

بعلبك ـ الهرمل ورؤيا الأطفال

لم يعتد أهل بعلبك ـ الهرمل على عدوان بحجم «حرب تموز ـ آب»، كانت المواجهة الأولى لهم مع هذا العدو الذي خرجت طائراته الحربية من إطار الأخبار المتلفزة التي كانت تصلهم قبل التحرير لترمي حقدها على قراهم. منهم من اختار الاحتماء خلف الحدود الشقيقة ومنهم من بقي مكانه، لكن اللافت تمسك الأطفال في تلك المنطقة بالحلم حيث كثرت الحكايات خلال الحرب، تقول أم أسعد: «استفيقت ابنتي لتخبرني بأنها رأت فارساً يعبر السهل بجواده ويحمل سيفاً ولم تعد تخشى صوت الطائرات الحربية».

لعل الحرب تدفع بنا إلى مكان في أعماقنا نبحث فيه عن مساحة للتعلق بالأمل أن نعود إلى ما قبل اندلاعها، فكيف إذا لم نكن قد اخترناها، ومن يؤمن بقضيته لا عجب أن يرى الخلاص سيفاً بقبضة فارس يدرك ألف باء المقاومة فيحمي الأرض والعرض ليحصد الانتصار تلو الانتصار وليكتب الزمن القادم بحبر الصمود القادر على إغراق المحتل في البحر.

جمال خليل

حسين سعد

قاسم شعلان

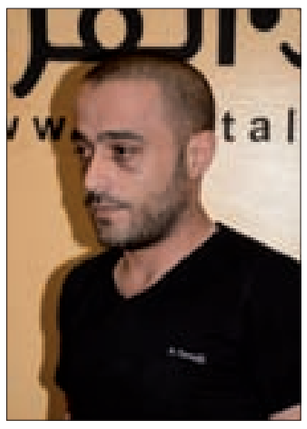
موسى الزين

مصطفى الحمود

الدمار في الضاحية

بعلبك ـ السوق القديم

المنار والانتصار....